بسم الله الرحمن الرحيم

سلطنة عُمان

وزارة التعليم العالي

كلية ....

قسم الدراسات الاجتماعية

المقرر: تاريخ عُمان والخليج العربي الحديث والمعاصر

بحث بعنوان:

الإمام ناصر ابن مرشد اليعربي

إشراف الاستاذ الدكتور: ....

إعداد الطالب: ....

التخصص: جغرافيا

السنة الدراسية: ....

العام الأكاديمي: ..../..............م.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم الانسان ما لم يعلم، وهداه الى الطريق الأقوم، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

أما بعد:

فيسرني ويسعدني أن أقدم هذا البحث المتواضع الذي اخترت له عنوان الإمام ناصر ابن مرشد اليعربي، وسبب اختياري لهذا الموضوع هو حبٌ مني في التَعرف عن قرب لسيرة هذا الإمام العادل الذي خلَّص عُمان من محنتها ووحد صفوف أهلها المتناحرة، وبجانب ذلك طرد البرتغاليين منها، ومن هنا فإنه يستحق هذا الاهتمام في التعرف بسيرته العطرة.

وفي بداية بحثي ونهاية دراسي بالكلية أشكر الفاضل الاستاذ الدكتور/ .... الذي أسدى لنا المعلومات القيمة والشيقة في نفس الوقت عن تاريخ الخليج العربي عامة وتاريخ عُمان خاصة ومن ضمن هذه المعلومات سيرة الإمام ناصر بن مرشد وتوحيده البلاد وطرده المحتلين.

أيها القاري اللبيب قد تناولت في بحثي هذا نبذة مختصرة بالتعريف عن دولة اليعاربة وهي كمقدمة للبحث في الموضوع، ثم تطرقت إلى التعريف بالإمام ناصر ابن راشد اليعربي من حيث اسمه ونسبه وصفاته وكراماته وفضائله وزهده ثم الحدث عن التحديات التي واجهته في سبيل توحيد البلاد وطرده الغُزاة، ثم سلسلة المعارك التي خاضها ضد المعارضين لحكمه، ثم علاقات الرؤوساء المحلين بالبرتغاليين ومدى هذه العلاقة من حيث حبهم أو كرههم وسترى العجب العجاب، ثم تناولت الدوافع القوية لرغبة العمانيين في طرد البرتغاليين وتوحيد صفوفهم، وفي المحطات الأخيرة وقفت على الأحداث التي دارت بين الإمام والبرتغاليين ، وأنهيت البحث بوفاته رضي الله عنه.

ايها القارىء الفطن ان هذا العمل قد يعتريه النقص والخلل فهو صادر من انسان لا يدعى الكمال بل ينشده، فإن وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن أخطأت فهو من نفسي والشيطان، ولا يسعني إلا قول الشاعر:

وإنْ تجد عيباً فَسُدَّ الخللا قد جلَّ من لا عيب فيه وعلا

وفي الختام اشكر المولى عز وجل على نعمائه، وان وفقني لكتابة هذا البحث الذي افادني ولله الحمد، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الإهداء

إلى طالب العلم والمعرفة

إلى الباحث عن سيرة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي

إلى بلدي الحبيبة عُمان وإلى العالم الإسلامي

نبذة عن قيام دولة اليعاربة

ظهرت دولة اليعاربة سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م عندما تك تنصيب ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي إماماً وقد انتهت هذه الدولة وزالت من الوجود قبيل منتصف القرن الثمن عشر حوالي سنة ١٧٤٧من بعد أن مرت في ثلاث مراحل وهي:

١- مرحلة التأسيس

٢- مرحلة القوة والازدهار

٣- مرحلة الضعف والتفكك [١]

وهذه الدولة الخامسة التي حكمت عمان متفرعة من الأزد وقد كانت مضرب المثل عظمة وهيبة واتساعاً حتى عُدت من الدول العظمى كما ذكر المؤرخون ذلك[٢]

وتعد دولة اليعاربة أولى الوحدات السياسية العربية في منطقة الخليج العربي عند مطلع العصر الحديث، إذ برزت ككيان سياسي مستقل نجح في توحيد أجزاء البلاد، كما نجح في إخراج المستعمر الأوربي الدخيل مما مهد السبيل أمام عمان لبسط سيطرتها على أجزاء مترامية في منطقة الخليج العربي وعلى امتداد الساحل الشرقي لأفريقيا بفضل القوة البحرية الكبيرة التي امتلكتها[٣].

الإمام ناصر بن مرشد اسمه ونسبه وصفاته

هو الإمام ناصر بن مرشد بن سلطان بن مالك بن أبي العرب بن محمد بن يعرب بن مالك بن يعرب بن مالك بن يعرب بن مالك اليعربي، ونسبه بعض المؤرخين إلى نصر بن زهران بن كعب بن حارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد، وبعضهم نسبه إلى يعرب بن عمر بن نبهان، ونبهان يتصل بالعتيك بن الأسد بن عمرو بن عامر "ماء السماء" وكلا النسبيين أزدي.

ولد الإمام ناصر فبلدة الرستاق سنة ١٠١٤هـ ونشأ في حضن الشيخ العلامة الكبير خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي وتربى على يد هذا العلامة الجليل فنشأ مؤدبا يحب المكارم ويبتعد عن الرذائل ويعشق المحامد منذ صغر سنه كما أن نزعته تميل إلى ما هو أجل وأكبر فهو من أبناء الأمراء الأكابر ومن بيت الشرف والمجد والرياسة ٤.

---

[١] - د. عبدالله أبو عزة – الخليج العربي في العصر الإسلامي- مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع- الكويت - الطبعة الأولى- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م- ص: ٥٠٥.

[2] - سليمان بن خلف بن محمد الخروصي – ملامح من التاريخ العماني- مكتبة الضامري للنشر والتوزيع – السيب- الطبعة الثالثة - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م- ص:١٣٩

[3] - د. بدر الدين عباس الخصوصي- دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر- الجزء الأول- منشورات ذات السلاسل-الكويت- الطبعة الثانية- ١٩٨٤م- ص:٦٥.

[4] - المرجع السابق- ص:١٣٩.

الإمام القدوة في الزهد والعفو

كان مضرب المثل في الزهد والورع والعدل والحلم والجود، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم غيورا على الوطن المقدس مجاهدا في سبيل الله صالحا مصلحا له كرامات كثيرة، ومفاخر جليلة ١.

ويروى عن ورعه وعفته الشيء الكثير ، إذ يروى أنه كان يُعطى له ولعياله نفقة من بيت مال المسلمين، ولم يكن لديهم قدر يطبخون فيها طعامهم ، فحاولت زوجته أن تقتصد من النفقة نزراً يسيراً ، حتى توفر لديها ما يمكنها من شراء آنية صغيرة لتطبخ فيها، فلما رآها الإمام سألها عنها، فأخبرته بما صنعت. فقال لها: أتستعملينها وهي من مال بيت المسلمين؟ فأمر وكيل عمله أن ينقص من نفقتهم قدر ما كانت زوجته تقتصد فيها.

ودخل عليه القاضي محمد بن عمر ذات يوم ، فوجده متغير الوجه ، فسأله عن السبب، فلم يجبه الإمام ، فألح عليه القاضي ، فأخبره أنه لم يكن معه شيء ينفقه على عياله سنة العيد .

ويروى أن أمه كان لها زوج بعد أبيه ، وكان الإمام رحمه الله ، وكان الإمام يطلب منها أن تصنع له طعامه قبل طعامهم لئلا تبقى بقية من طعام زوجها فيدخل في طعامه . فخالفت أمره مرة ، فعجنت طحين زوجها ، ثم خبزته ، ولم تغسل الوعاء، فعجنت فيه طحين الإمام . وقيل إن يدها التصقت (بالطوبج) وحميت الحديدة التي تخبز عليها ، ولم تستطع نزعها حتى رضي عنها الإمام ٢.

سبب مبايعته بالإمامة

كانت عمان في ذلك العصر مجزأة في أيدي الرؤساء العمانيين وقد نشبت فيها بينهم حروب قبلية قاسية وكثرت الفوضى٣.

وإن زعماء الرستاق الذين انغمسوا في صراع عقيم بعضهم مع البعض الآخر ولم يستطيعوا أن يخرجوا من دائرته لجأوا إلى العلماء المسلمين أهل الاستقامة في الدين وطلبوا منهم أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر مما أدى هذا الوضع المضطرب إلى أن يجتمع كبار العلماء ويتشاوروا فيما بينهم ويتصلوا بغيرهم ممن بعد عن الرستاق بالمراسلة كي يختاروا إماما يكون على يديه الخلاص ويقال إن عدد الذين اجتمعوا يزيد على أربعين عالماً وكان في مقدمتهم الشيخ خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي والشيخ عبدالله بن محمد بن غسان النزوي وغيرهم وكان الشيخ خميس بن سعيد الشقصي متزوجا من والدة ناصر بن مرشد على أثر ترملها بوفاة والد ناصر ويقال أن الشيخ خميس هو الذي دل العلماء على ناصر بن مرشد واقترح اسمه لشغل منصب الإمامة وعمره عشرون سنة٤، وطلبوا منه بإلحاح أن يقبل

---

[1] - المرجع السابق – ص: ١٤٠

[2] - http://www.alfida.jeeran.com/emamnasermurshed.htm

[3] - سليمان بن خلف بن محمد الخروصي – مرجع سابق- ص:١٤٠.

[4] - د. عبدالله أبو عزة – مرجع سابق- ص:٥٠٦-٥٠٧.

الإمامة وليكون القائد الأعلى للبلاد وقبل الإمام ناصر بن مرشد طلبهم هذا بعد تردد ووجه همه عقب توليه السلطة إلى بناء الوحدة الداخلية والرد على العدوان الخارجي المتمثل في وجود البرتغاليين [1]،والفرس الذين سعوا لوراثة ملك البرتغاليين في عُمان[2].

فضائله وكراماته

ومن فضائله رحمه الله أن بدويا ضلت ناقته ، فمضى في طلبها. فبينما هو سائر إذ رأى أثر قدم إنسان فاستعظمها ، فجعل يتبعها حتى انتهت به إلى غابة كثيفة الشجر، فسمع صوتاً من داخل إحدى الأشجار يقول له: مطيتك في موضع كذا ، فامضِ إليها، وقل للإمام ناصر بن مرشد يلزم هذه السيرة ، فإنها سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم). فمضى البدوي مرعوبا، وقصد الموضع الذي وصفه له الصوت ، فوجد فيه مطيته، ثم مضى بعدها إلى الإمام، وكان الإمام قد رأى في نومه أن بدويا أتاه يبشره أنه سائر على منهج الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته الشريفة ، فلما وصل إليه البدوي رآه في يقظته كما رآه في منامه، فقص عليه البدوي ما جرى وما سمع، فحمد الإمام الله على ذلك ، وكافأ البدوي على بشارته.

ومن كراماته رضي الله عنه وغفر له، أن رجلا بينما كان نائما في مسجد قصرى من الرستاق، رأى كأن سراجا مضيئا في زاوية المسجد، فلما انتبه رأى في تلك الزاوية الإمام مضطجعاً، وذلك قبل أن يعقد له بالإمامة.

وذات مرة كان رضي الله عنه نائما على سطح المنزل من شدة الحر أيام الصيف، فجاء إليه رجل ليقتله، فوقف على رأس الإمام والخنجر في يده مشحوذ مسنون، والإمام نائم ، فأمسك الله على يد الرجل ، ولم يمكنه من قتل الإمام حتى انتبه من نومه ورآه واقفا والخنجر في يده، فسأله : ما تريد ؟؟ فقال الرجل: لا يسعني سوى عفوك فعفا عنه الإمام ولم يعاقبه.

ومن كراماته رضي الله عنه أنه اجتمع أناس من السفهاء في منزل أحدهم يشتمون الإمام ، فنهتهم ربة المنزل ، فلم ينتهوا ، فخرجت من فورها من البيت غاضبة، فخرّ السقف فوق رؤوسهم ، فماتوا جميعا إلى حيث ألقت، وذلك تصديقا لقول الله عز وجل: ((إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور)) [سورة الحج].

وقيل إن بغلة أكلت من طعام بيت المال من غير حق ، فتحرشت، فلم تزل كذلك حتى رأت الإمام، فأقبلت عليه ووضعت رأسها على منكبه حتى أتى صاحبها فسأله الإمام عن السبب، فأخبره بما فعلت. فرضي الإمام وسامحها ، ومسح بيده الكريمة على رأسها فبرئت.

---

[1] - د. جمال زكريا قاسم- تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر- المجلد الأول- دار الفكر العربي- القاهرة- ١٤١٧هـ/١٩٩٧م- ص:١٧٧.

[2] - د. بدر الدين عباس الخصوصي- مرجع سابق- ص:٦٦

ويروى بالتواتر الجازم عن كثرة البركة التي أسبغت على رعيته بسبب صلاحه ونزاهته ، وفي نور الله وبركته وهديه ، روي أن جراب تمر قد أشبع جمعاً مؤلفاً من أربع مائة رجل . ومثل ذلك في جراب أرز وذلك في غزوة نخل.

وهذا قليل من كثير ، وكما يقول الشيخ السالمي رحمة الله عليه، إنهم ما كانوا يهتمون كثيراً بتدوين تلك الأخبار ، وأقول : ربما كان ذلك لكثرتها ولكثرة الصالحين في ذلك الزمان، فقد كان الصلاح القاعدة العامة والشذوذ والانحراف نادرين، بعكس زماننا هذا. فمن يدون هذه الأيام سيجد كثرة الفساد ، وحشداً هائلا من أخبار المفسدين في الأرض[1].

التحديات التي واجهة الإمام ناصر بن مرشد

تسلم الإمام ناصر بن مرشد عمان جثة هامدة ممزقة البنية ممزقة الروح والوجدان ويبدو أنه أدرك منذ البداية أن مهامه تتمثل في أن يجمع الأشلاء ويعيد لها وحدتها وروحها ووجدانها ولم يكن لهذا الهدف أن يتحقق إلا باستعمال الحكمة والحزم والقوة معاً، وتمثلت التحديات التي واجهها الإمام ناصر بن مرشد فيما يلي :

١- زعماء القبائل ورؤساء المدن والقرى ، فقد كان ناصر بن مرشد من أهل الرستاق ، وجاء انتخابه – بالدرجة الأولى – من علماء الرستاق ، كما كان أنصاره الأوائل (اليحمد) رستاقيين . ولم تكن القبائل والمدن الأخرى تدين للرستاق بالولاء في تلك الفترة أو ترى أن لها أفضلية عليها .

٢- كان بعض الأمراء والرؤساء على علاقة وثيقة بالبرتغاليين . ومن المرجح أن البرتغاليين كانوا يسرون لهم الحصول على منافع تجارية ، باعتبار أن المنافذ على الساحل كانت بأيدي البرتغاليين ، فضلا عن أسطولهم القوي كان يستطيع التحكم في حركة السفن التجارية العمانية

٣- أما التحدي الثالث فهو وجود البرتغاليين وسيطرتهم على مدن وموانى الساحل المطل على بحر عمان وعلى الخليج العربي . وقد بدأ الاحتلال البرتغالي لتلك المناطق قبل مائة سنة من تنصيب ناصر بن مرشد إماماً .

٤- سيطرة عدد من شيوخ بني جبر وبني هلال على بعض المدن والمناطق والحصون داخل عمان ، إذ يبدو أنهم استقروا فيها من أيام قوة الإمارة الجبرية في الإحساء أثناء فترات ضعف الإمامة ، وربما استقر بعضهم بعد انهيار تلك الإمارة سنة ١٥٥٢م[2].

سلسلة معارك الإمام ناصر بن مرشد الداخلية

على رغم انتماء الإمام ناصر بن مرشد إلى البيت اليعربي فإنه لم يسلم من الدخول في مواجهة عسكرية مع نفر من بني عمه ومع أحد أعمامه حيث كانت تلك خطواته الأولى لتثبيت مركزه وفرض احترامه فبعد تنصيبه مباشرة وجد أن عليه أن يقتحم

[1] - http://www.alfida.jeeran.com/emamnasermurshed.htm

[2] - د. عبدالله أبو عزة- مرجع سابق- ص:٥٠٨-٥٠٩.

بأنصاره قلعة الرستاق رمز السلطة والقوة وفيها بنو عمه وقد تمكن من اقتحامها ليلاً والاستيلاء عليه١، ثم توجه الإمام بقرية نخل وكان مالكها ابن عمه سلطان بن أبي العرب فحاصرها أياما وافتتحها وقضى الأرب وكان أخذه لها دون مشقة ولا تعب، وكانت فرقة من أهل نخل زائلة عن الحق واعتدوا على واليه -والى الإمام- فحصروه وأتاه الإمام واليحمد فنصروه وبدد الله به شمل أعدائه الفساق ثم قدمت عليه من نزوى يدعونه إلى ملكها فأجابهم إلى ذلك ولم يعزم على تركها فسار في قومه ومعه رجال اليحمد واناجوا بشرجة صفر من سمد وأقام بها ليلة فلم يصدقوه فيما وعدوه وتمادوا في تركه ولم يفوا بما عاهدوه ثم رجع الإمام إلى بلد الرستاق بعدما أخلفه أولئك القوم وأقام بها على العدل والإنصاف٢.

وفي نزوى تآمر بنو بوسعيد ضد الإمام الذي حل بمدينتهم وكانوا رؤساء العقر من نزوى وكادت مؤمراتهم تنجح لولا أن الإمام تلقى معلومات عنها تتحقق من صحة تلك المعلومات قبل التنفيذ فأمر بطرد المتآمرين ونفيهم ونهى عن قتلهم تجنباً لتوسيع الأحقاد والعداوات وبعد هذه الحادثة أمر الإمام بتشيد حصن محكم البنان في عقر نزوى ليكون رمزاً ومركزا لقوة الإمامة وليمنع تكرار أي تآمر أو تمرد، وقد فر معظم المهزومين في نزوى فإلتجاوا إلى مانع بن سنان كما أن بعضهم التجأ إلى سيف بن محمد الهنائي الهناوي في بهلا ، ولم تكل عزيمة الإمام ناصر فقد شكل جيشاً لمهاجمة سيف بن محمد الهنائي وقاده بنفسه لكنه عندما وصل الى قاع المرخان وجد أن قواته أضعف من أن تحرز النصر على الأعداء الذين احتشدوا لقتاله ولذلك اجل مهاجمة الهنائي وحلفائه وعاد الى نزوى وأخذ يجمع المحاربين ويبدو أنه صرف النظر مؤقتا عن ملاحقة سيف بن محمد الهنائي واتجه الى منطقة الظاهرة والى سمد الشأن[3] حيث أتوا للإمام أهل سمد الشأن على التوالي وهي يومئذ في ملك علي بن قطن الهلالي فوجه مولانا الإمام لها جيشاً عرمرماً يقدمهم الشيخ العالم مسعود بن رمضان فافتتحها من غير مشقة ثم أتوه أهل إبراء وكان ملكهم محمد بن جيفر بن جبر فافتتحها بعون الله تعالى والصبر حتى دانت له سائر الشرقية[4] وذلك قبل أن يعود الى الرستاق، وفي هذه الأثناء أقدم جند محمود بن جيفر الجبري على احتلال نخل ما خلا حصنها فأعد الإمام قوة طردتهم منها، ثم اضطر الإمام لتلبية طلب للنجدة ورده من واليه في الظاهرة الشيخ خميس بن رويشد ضد تجاوزات آل هلال وأتباعهم من البدو وسار الإمام بجيشه لمهاجمة حصن الغبي الخاضع لآل الهلال وجرت معركة عنيفة قتل فيها جاعد بن مرشد أخو الإمام ناصر بن مرشد وبعد الحصار تمكن الإمام من الاستيلاء على الحصن فجعله تحت ولاية خميس بن رويشد ثم كلف الإمام ولاته بفتح ما بقي من قرى الظاهرة

---

[1] - المرجع السابق – ص:٥٠٩.

[2] - عبدالله بن خلفان بن قيصر- سيرة الإمام ناصر بن مرشد- وزارة التراث القومي والثقافة- سلطنة عُمان- الطبعة الثانية- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م- ص: ١٧.

[3] - د. عبدالله أبو عزة- مرجع سابق- ص: ٥٠٩-٥١١.

[4] - عبدالله بن خلفان بن قيصر- مرجع سابق- ص: ٢١.

وفي هذه الأثناء زحف من جديد على بهلا وفيها سيف بن محمد الهنائي وحاصرها حوالي شهرين وجاء حلفاء الهنائي من بني جبر في محاولة لفك الحصار عنه لكن قوات الإمام أنزلت بهم خسائر جسيمة حملتهم على الانسحاب وواصلت حصار الهنائي وأتباعه حتى اضطر الى تسليم الحصن وانسحب هو ورجاله منها فعين الإمام واليا على الحصن ويبدو هذه الهزيمة لم تكن كافية إذ خرج الهنائي بعد انسحابه من بهلا الى بلاد سيت وطفق يواصل أنشطته العدائية ضد الإمام ناصر ووجه الإمام جيشا بقيادة الشيخ عبدالله بن محمد الغساني فترك الهنائي الحصن وخرج هاربا فأمر القائد الغساني بهدمه وإذ جاء الهنائي يطلب العفو[1].

علاقة الزعامات المحلية بالبرتغاليين

بعد عمليات الإبادة والتدمير والنهب والتحريق التي مارسها البرتغاليون بوحشية وبربرية بالغة في المواجهة الأولى من هجومهم على مدن وقرى الساحل العماني نجدهم في الحقبة اللاحقة بإقامة علاقات ودية مع سكان تلك المناطق تقوم على الخضوع والولاء للبرتغاليين من جانب الزعامات المحلية مقابل تركهم يعيشون مع توفير مقادير من المنافع المادية عن طريق المشاركة الجزئية والدولية في التجارة، وكان سكان الساحل مغلوبين على أمرهم يعانون من القهر وقد طال الاحتلال وثبت أقدامه وتلاشت جذوة الأمل بقيام قوة عُمانية تتمكن من طرده ولن عددا من الزعامات المحلية كان قد انغمس واندمج في التعاون مع البرتغاليين وقبلوا أن يكونوا أدوات في أيديهم مثل مانع بن سنان العميري وسيف بن محمد الهنائي وسيف بن محمد بن جفير الجبري وأبوه قبله.

دوافع مواجهة العمانيون للبرتغاليين

بالنسبة لمعسكر الإمام وعامة العمانيين كان أول منطلقات المواجهة إن الوجود البرتغالي يمثل احتلالا أجنبيا معتديا وهو فوق ذلك احتلال العدو الكافر الغريب عن المنطقة بل وعن الشرق لكه ، أما المنطلق الثاني فكان الحرمان الذي تعرض له العمانيين بسبب استئثار المحتلين بمعظم مرابح التجارة بجانب تقيدهم لحرية العمانيين في ممارسة العمل التجاري خاصة التجارة البحرية والدولية، والمنطلق الثالث هو الرغبة في إنهاء التسلط والقهر الذي مارسه البرتغاليون مفعما بذكريات دامية ومؤلمة من الأعمال الوحشية الحاقدة في بداية الاحتلال وهكذا كانت الدوافع قوية لا يؤخر انطلاقها الا انتظار الظروف المناسبة بعد أن تتمكن الإمامة من توطيد مركزها وتثبيت وجودها وسيطرتها والقضاء على الأعداء الداخليين

[1] ـ د. عبدالله أبو عزة- مرجع سابق- ص: ٥١١.

الأمام والبرتغاليين

ويبدو أن أولى الإجراءات التي اتخذتها الإمامة في عهد الإمام ناصر بن مرشد تمثلت في فرض المقاطعة والحصار التجاري على البرتغاليين ويتضح لنا وجود هذا الإجراء من نص للازكوي في حديثه عن الصلح الذي أجراه القاضي خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي مع وجوه النصارى في مسقط حيث ((... أمر خميس بفك المقابض عنهم ورخص الناس في السفر غليهم وكفت الأيدي عن القتال)).

وكان مما سهل على القيادة العمانية اليعربية الاستمرار في الحرب ضد الاحتلال البرتغالي والتغلب عليه في النهاية أن قوة البرتغاليين قد تعرضت لمشاكل وضربات أثناء العقود السابقة على قيام دولة اليعاربة كان من أبرزها وأهمها ضم البرتغال الى أسبانيا عام ١٥٨٠م وما تبع ذلك من إهمال الملكية الأسبانية للنشاط الاستعماري البرتغالي في بحار الشرق، وقد استمرت هذه التبعية حتى سنة ١٦٤٠م عندما استعادت البرتغال استقلالها وشخصيتها ثم كان لظهور قوى أروبية منافسة تمثلت في الإنجليز والهولنديين الذين وصلوا الى مياه الخليج في أوائل القرن السابع عشر والواقع أن المنافسة سرعان ما تحولت الى صراع دموي ومعارك بحرية هائلة وقد بلغ الصراع ذروته في تعاون سفن شركة الهند الشرقية الإنكليزية مع القوات الإيرانية لطرد البرتغاليين من هرمز

وبدأت مهاجمة حلفاء البرتغاليين عندما وجه الإمام جيشا قويا الى قرية لوى التي كانت تحت سيطرة الجبور وقد نزل القائد الشيخ عبدالله بن محمد الغساني في مسجد لوى واتخذه مركزا لقيادته ودار جنوده بالحصن وحاصروه وكان الحصن لسيف بن محمد بن جفير الجبري وكان أخوة سيف ومعانوه قد إلتجاوا الى البرتغاليين المسيطرين على مدينة صحار القريبة حيث كان قد سبقهم إليها أيضا متمردا آخر هو مانع بن سنان العميري وصار هؤلاء ينتهزون فرصة حلول الظلام ليهاجموا جيش الإمام المحاصر للحصن وليمدوا المحاصرين بالطعام والسلاح والعدة لكن القائد الغساني أعد قوة خاصة هاجمتهم قرب الساحل وأنزلت بهم ضربة ساحقة عند الفجر وعادت أدراجها[1]، ويذكر عبدالله بن خلفان مؤلف كتب سيرة الإمام خبر معرفة الإمام بعمل مانع بن سنان وما فعله بقوله ((فأرسلوا أبناء جفير للوالي عبدالله بن محمد الموصوف بالخير يسعون في أنواع الصلح وأسبابه خاضعين له ومنتظرين لجنابه فعلم بما هو عليه من سجية وطبيعة..فلما أن وضح لديه حالهم الجلي جهز لهم جيشاً وأمر فيه الوالي محمد بن علي ليهجم جمعهم المستكين بصحار وليكن ذلك بعد الهدوء فأتوهم عند ذلك قبل بدو الصباح في موضع يدعى يمنقل مقرن وهو يلي الجنوب من الحصن على ساحل البحر فهناك وقع فيهم الطعن والضرب والنحر ثم رجع والي الإمام محمد بن علي الى الولاة حاكما لأصحابه ما فعله في أضداده وسواه))[2]، أما الحصار ظل مستمرا ستة أشهر الى أن اضطر سيف لطلب الأمان وتسليم الحصن، وما لبث الإمام أن أصدر تعليمات الى والي لوى حافظ بن سنان

[1] - المرجع السابق- ص:٥١٢- ٥١٥.

[2] - عبدالله بن خلفان بن قيصر- مرجع سابق- ص: ٥١-٥٢.

يأمره ببناء حصن على ساحل البحر قرب صحار، وجمع الوالي المقاتلين من أهل القرى التابعة لجلفار واجتمع له نفر من بني خالد ومن المعمور وبني لام وغيرهم وقد تعاون الصحاريون مع قوات الإمام ولعل ذلك سهل عليها التسلل الى داخل البلدة والاستيلاء عليها بهجمة مباغته وقد ذكر صاحب الفتح المبين ان تحرير صحار تم في آخر أيام شهر محرم سنة ١٠٤٣هـ الموافق للسادس من آب (أغسطس) ١٦٣٣م، لكن الدكتور شلوت يذكر أن المدينة سقطت بأيدي العمانيين سنة ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م.

هجمات الإمام على البرتغاليين

على الرغم من أن عناصر المعارضة والتمرد لم تخضع تماما فقد تشجع الإمام على مواصلة تحرير الساحل العماني من الاحتلال البرتغالي ويبدو أنه اطمأن الى توطيد سلطة الإمامة ونمو قوتها بدرجة كافية تجعل مخاطر العناصر المتمردة من الزعامات الطموحة وبعض العشائر الجبرية وبدو الشمال مخاطر قابلة للاحتواء ونتيجة لهذا الاطمئنان الذي توصل إليه الإمام فإنه اعد جيشا وضع على رأسه القائد الشيخ مسعود بن رمضان ((وأمر أن يقصد مسكد)) يعني مسقط، وزحفت هذه القوات حتى وصلت الى طوى الرولة من مطرح حيث بدأت الإشتباكات بينها وبين البرتغاليين ورغم قول المصادر العمانية بأن القوات العمانية حققت النصر وهدمت عددا من البروج التي تحصن فيها المدافعون البرتغاليون إلا ان هذا النصر لم يكن حاسما ولم يتمكن الشيخ مسعود بن رمضان من الاستيلاء عل ى مسقط نفسها والقضاء على الوجود البرتغالي تماماً ومع ذلك يمكن القول أنها حققت درجة من النصر اضطرت البرتغاليين الى طلب الصلح واضطر بالعمانيين الى القبول، واهم شروط الصلح هي:

فك ما بأيديهم من أموال العمور وأموال الشيعة من صحار والتي احتجزوها – البرتغاليين

الوفاء، ويقصد به أن يفي البرتغاليون بتعهداتهم حتى لو كانت تعهدات سابقة نكلوا عن الوفاء بها وحانت الفرصة لإجبارهم على الوفاء بها

ويلاحظ إن نص الشروط ليس واضحا بدرجة كافية.

وفي خطوة تدل على عزم الإمام على طرد البرتغاليين من جميع المواقع التي كانوا يحتلونها في المنطقة فقد شكل قوة ضمت عددا من بني عمه آل يعرب ووضع القائد علي بن أحمد وأمره بالسير الى جلفار حيث كان ناصر الدين العجمي مع جنود من الفرس والبرتغاليين، وتقول المصادر إن فرقة من أهل الصير (جلفار) تعاونت مع الأعداء وساعدتهم في المعركة ضد قوات الإمام وبعد اشتباكات طويلة ومتقطعة في الليل والنهار تمكنت قوات الإمام من الاستيلاء على الحصن بعد ان انهارت قوة المدافعين العجم وعين القائد علي بن أحمد واليا على الحصن وترك معه قوة من الجند ثم زحف على حصن آخر كان يقوم على الساحل تتكركز فيه القوة البرتغالية التي كانت تساند ناصر الدين العجمي بقصف مدفعي ضد جيش الامام ويبدو ان البرتغاليين صمموا على التمسك بالحصن ولكن القائد علي أحمد كان أكثر تصميما على طردهم فأمر قواته بمحاصرة الحصن البرتغالي كما امر ببناء حصن آخر أو

حصون أخرى حول الحصن البرتغالي ويبدو هذا الإسلوب كان يستهدف غرضين، الأول إقناع العدو بان العمانيين مصممون على الاستمرار في محاصرتهم مهما طال الوقت ليجبروهم على التسليم والثاني أن جيش الإمام كان بحاجة الى استحكامات واقية تحميهم من رماية البرتغاليين الذين كانوا مسلحين بالبنادق والمدافع وبطبيعة الحال فقد كانت الأسلحة النارية بدائية بمقاييس القرن العشرين لكنها فتاكة ورهيبة بمقاييس القرن السابع عشر الميلادي، وهكذا اضطر البرتغاليون الى طلب التفاوض فقبل القائد العماني وانتهت المفاوضات الى السماح لهم بالانسحاب حيث احتلت الحصن قوات الإمام.

أما في جنوب الساحل العماني قامت قوة أرسلها الإمام ناصر بن مرشد بمهاجمة حصن البرتغاليين في صور وفرضت عليه الحصار حتى استسلم المدافعون عنه وتحرك قسم من هذه القوة الى قريات وشدوا الخناق على الحصن الذي تمركز فيه البرتغاليون هناك وقد ذكرت المصادر العمانية انه سقط بأيديهم وكانت مسقط هي القاعدة الرئيسية وقد زاد البرتغاليون من تحصيناتها بعد ان سقطت جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢م، فاعتبروا مسقط بديلا لها وأملوا ان يتخذوا من مسقط قاعدة انطلاق لاستعادة سيطرتهم على هرمز وربما على مواقع مهمة غيرها، فواصل الإمام حشد القوات ودفعها نحو مسقط حتى وصل البرتغاليون الى حالة اليأس وناقش مجلس مسقط البرتغالي الوضع وقرر التخلي عن الحصون المحاصرة التي عجز عن تزويدها بالإمدادات كما قرر أن يتوجه الى الإمام بطلب الصلح وذلك في ١١ سبتمبر ١٦٤٨م/١٠٥٨هـ ، وان لدينا روايتين عن هذا الموقف أحدهما عمانية والثانية برتغالية ورغم أنهما غير متطابقتين إلا انهما تتفقان في الجوهر ونكمل الواحدة الأخرى، والروايتان من مصدر معاصرين للأحداث أو مشاركين فيها وإليك الروايتين:

١ـ الرواية العمانية

روى عبدالله بن خلفان بن قيصر خبر هدنة أو صلح تم بين الإمام ناصر بن مرشد من جهة والبرتغاليين المحتلين لمسقط من جهة أخرى بوساطة شخص عماني –على ما يبدو- يدعى ماجد بن ربيعة الكندي ((وكان ماجد بن ربيعة الكندي قد توجه لمولانا الإمام في الصلح ما بينه وبين النصارى للسلامة للإسلام فانعم له بذلك، فتوجه لمسكد في الحال ليقع الصلح ما بينهم والسلامة من القتال واستحسنت النصارى منه ذلك الرأي والتدبير فأنعمت له بالصلح وأرسلت للجيش والأمير فرجعوا إليه في الحال وانطفأت نار الحروب...))، وعدا عن الاقتضاب الشديد وقلة المعلومات المحتواه في هذه الرواية فإنها تشير ضمنيا الى ان العملية جاءت بمبادرة ومسعى شخصي من ماجد الكندي وهذا فهم غير مقبول وعلى عكس هذه الرواية العمانية نجد الرواية البرتغالية توضح بجلاء أن طلب الهدنة كان مسعى برتغاليا ويبدو أن ماجد الكندي كان من سكان مسقط العمانيين وان القيادة البرتغالية هي التي كلفته بالسعي في طلب الهدنة

٢ـ الرواية البرتغالية

تقول وثيقة برتغالية رسمية بتاريخ ١٦٤٨/١٢/١٥م إنه نظرا لأن تكاليف الحرب كانت مرتفعة جدا بينما انخفض دخل الخزينة شديدا بسبب الهجمات على مسقط ومطرح وجميع الحصون البرتغالية الأخرى على الساحل العربي من الخليج وقد غدا من المعتذر إمداد بعض المراقب(أي الأبراج القتالية المخصصة لمراقبة المهاجمين) بالتموين والعتاد فقد تقرر تركها للعدو أي العمانيين(في الحقيقة هم الأعداء لانهم هم المقتحمين على الأرض الغاصبين لها)
ونظرا للموقف الراهن الصعب فقد وافق جميع أعضاء المجلس على بدء المفاوضات للوصول الى سلام مع العمانيين.

المفاوضات بين العمانيين والبرتغاليين

كان الشيخ سيف بن مالك اليعربي يحمل تفويضا كاملا من الإمام ناصر بن مرشد كما كان الفيكار(Vicar) يحمل تفويضا كاملا من القائد العام للقوات البرتغالية، وقد تضمنت الاتفاقية التي تم التوصل اليها بين الجانبين عددا من البنود أهمها:

١- أن يسود بين الجانبين سلام وطيد يؤدي الى قيام صداقة طيبة بينهما
٢- يمتنع كل من الجانبين عن خرق الاتفاقية أو التقصير في تنفيذها كل فيما يخصه
٣- يقوم البرتغاليون بهدم حصونهم في قريات ودبا ومطرح
٤- يقوم العمانيون من جانبهم بهدم الحصن الذي يملكونه في مطرح
٥- تكون مطرح ميناؤها مفتوحة للجانبين وغير مملوكة لأي منهما وسيقوم الجانبان بسحب مدفعيتهم وممتلكاتهم منها
٦- تستطيع السفن العمانية الإبحار الى أي ميناء تشاء
٧- لا تدفع السفن العمانية أية رسوم جمركية في مسقط كما كان الحال قبل اتفاقية السلام وتكون بضائعها معفاة من أي رسوم سواء وقت الإبحار والسفر في المياه الدولية أو عند العودة
٨- حرية تداول البضائع بين الجانبين دون أية جمارك أو ضرائب
٩- يكون الإمام ناصر بن مرشد وملك البرتغال صديقين كما يكونان عدوين لكل من يعادي أيّا منهما.

وكان الأهم ان هذه الاتفاقية كانت المسمار الأخير في نعش الاستعمار البرتغالي والوجود البرتغالي في المنطقة بعد حرمان البرتغاليين من مرابح التجارة وهي من أهم أهدافهم وعماد قوتهم وهكذا آذنت شمسهم بالأفول[1].

وفاته

توفي الإمام ناصر بن مرشد اليعربي رضي الله عنه يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة ١٠٥٠هـ ودفن بنزوى قبره معروف فيها[2].

[1] - د. عبدالله أبو عزة – مرجع سابق- ص:٥١٥-٥٢١.
[2] - سليمان بن خلف بن محمد الخروصي – مرجع سابق--ص:١٤٠.

حيث توفي الإمام ناصر بن مرشد بعد حوالي أربعة أشهر ونصف من توقيع الاتفاقية المنوه عنها فيما سبق ، وترك لخليفته إكمال مسيرة التحرير.
لقد قام الإمام ناصر بن مرشد بإنجازات عظيمة / فقضى على الفوضى وكسر شوكة الزعامات والعصبيات وبعث روح الوحدة والشعور بالانتماء ، وأثار الحماسة الدينية والوطنية لدى العمانيين ، وحطم القوة البرتغالية المحتلة التي كانت – رغم فقدانها لمركزها وقاعدتها في هرمز ، ورغم مواجهتها لمنافسين أوربيين اقويا- قد ظنت أن مسقط هي القاعدة البديلة لهرمز ، وأن الوجود البرتغالي سيستمر .فقبيل وفاة الإمام ناصر بن مرشد وصل البرتغاليون في السواحل العمانية الى مرحلة انتظار رصاصة الرحمة ويبدو أن الإمام أدخل أسلحة حديثة (بمقياس ذلك العصر) في تسليح جيشه ، حيث عرفنا أن لدى العمانيين مدافع لأول مرة، من نصوص اتفاقية الصلح .

على أثر وفاة المؤسس، الإمام ناصر بن مرشد ، خلفه ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي ، وهو الذي شهدناه قبل أربعة اشهر ونصف الشهر من ولايته، يتفاوض مع البرتغاليين ويوقع اتفاقية سلام . وبولاية الإمام سلطان بن سيف سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م بدأ عهد القوة والازدهار للدولة اليعربية ، وهو العهد الذي أمتد قرابة سبعين سنة ، وقاد الدولة خلاله أربعة أئمة من الأسرة اليعربية ، وشهد أعظم إنجازات عمان في تاريخها الطويل . وقد انشغلت عمان في هذا العهد بثلاث قضايا رئيسية :

١- تحرير ما تبقى تحت الاحتلال البرتغالي من ساح عمان ،وإبعاد الخطر البرتغالي .
٢- تحقيق الرخاء والازدهار الاقتصادي .
٣- بعض الخلافات الداخلية المتعلقة بمنصب الإمامة ، والني حسمت في وقت وجيز [1].

[1] - د. عبدالله أبو عزة – مرجع سابق- ص:٥٢١-٥٢٢.

الخاتمة

بعد هذه الجولة الممتعة في سيرة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي إلا إنني عاجز عن الإلمام بسيرة هذا العالم الإمام الزاهد الورع الذي خلص عُمان من تفككها وتمزقها وجمل شمل أهلها وكافح في تحريرها من الأعداء الغاشمين الناهبين لخيراتها والمنكلين بأهلها والبا عثين على الفساد، وقد سار سيرة السلف الصالح في رعيته فحكم بالحق والصواب وأقام العدل والإنصاف في الرعية.

ولاحظ أخي القاري اللبيب من خلال البحث الأحداث الحسام في المعارك والصدق من العمانيين في تحرير أراضيهم من البرتغاليين وإن كان هناك بعض الخونة إلا أنهم ردوا خائبين مهزومين والحمد لله، فقد مكن الله للإمام النصر ولأتباعه رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مثواه.

هذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المكتبة الالكترونية الشاملة
www.fiseb.com

المراجع

١- د. بدر الدين عباس الخصوصي- دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر- الجزء الأول- منشورات ذات السلاسل-الكويت- الطبعة الثانية- ١٩٨٤م
٢- د. جمال زكريا قاسم- تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر- المجلد الأول- دار الفكر العربي- القاهرة- ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٣-د. جمال زكريا قاسم- تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر- المجلد الأول- دار الفكر العربي- القاهرة- ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٤-سليمان بن خلف بن محمد الخروصي – ملامح من التاريخ العماني- مكتبة الضامري للنشر والتوزيع – السيب- الطبعة الثالثة - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م
٥- د. عبدالله أبو عزة – الخليج العربي في العصر الإسلامي- مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع- الكويت - الطبعة الأولى- ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
٦-عبدالله بن خلفان بن قيصر- سيرة الإمام ناصر بن مرشد- وزارة التراث القومي والثقافة- سلطنة عُمان- الطبعة الثانية- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٧-http://www.alfida.jeeran.com/emamnasermurshed.htm

فهرس الموضوعات